المحاضرة رقم (01)

في مفهوم النقد

مفتتح

شغل النقد الأدبي مساحة واسعة في فضاء العربية قديمها وحديثها بوصفه فعالية تدرجت في مسارها منذ بروز أحكامها الأولى ذات الطبيعة العفوية والانفعالية والجزئية إلى التوجيه والوساطة والموازنة فالتحليل، ثم بوصفه موضوعا تناوله الدارسون على مراحل بالتحليل للوقوف على مبادئه ومرجعياته وتطوراته، فنتج إثر ذلك كله ركام هائل من الدراسات عُنيت بمفهومه وطبيعته ووظيفته من أجل تحديد نظريته ومنظوره وأعرافه الإجرائية، سنحاول في هذه المحاضرة تسليط الضوء على قضية واحدة من قضاياه؛ وهي: المفهوم.

1- لغة

- النَّقْدُ: هو تمييز الدراهم، وإخراج الزيف منها[1]،
- والتَّنقَادُ والتَّنَقُّد: هو تمييز الجيّد من الرديء في كلّ شيء[2]، من ذلك:
- نَقَدَ الشَّيْءَ: بيّن حسنه ورديئه، أظهر عيوبه ومحاسنه[3]؛
- ونَقَد الشّعر، وهو من نَقَدَةِ الشّعر ونُقَّادِهِ: إذا اِنْتَقَدَ الشّعر على قائله، أي أدام النظر إليه ليخلّص جيّده من رديئه[4].

يبدو أن مفردة "النقد" قد تحددت معجميا بمعنى التمييز؛ وهو فعالية تنحصر في سياق بنيوي محدد هو الصيرفة، ثم اتسعت دلالاتها فاشتملت الأدب بفنونه المتنوعة، وغدت تُعنى بمداومة النظر في نصوصه لتخليص جيّدها من رديئها، الأمر الذي يفترض انتقال النقد من طور المعاينة حيث يكون حكمه نابعا من الانفعال طالما أنه يتبع شعرا يقوم

---

1)- ابن منظور، ***لسان العرب***، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض- المملكة العربية السعودية، ط1، 1300هـ- فصل النون، حرف الدال، مادة (نقد)، 4/ 436.

2)- الزبيدي، ***تاج العروس من جواهر القاموس***، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (د.ط)، 1291هـ- - 1971م، مادة (نقد)، 9/ 203.

3)-أحمد مختار عمر، ***معجم اللغة العربية المعاصرة***، عالم الكتب. نشر. توزيع. طباعة، القاهرة- مصر، ط1، 1429هـ- 2008م، 4/ 2264.

4)- الزمخشري، ***أساس البلاغة***، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،ط1، 1419هـ- 1998م، مادة (نقد)، 2/ 297- 298.

على المشافهة والإنشاد وجريان الطبع الشعري، إلى طور الفحص والتدقيق حيث يكون حكمه صادرا من التحليل والدراسة طالما أنه يتبع شعرا يقوم على التخطيط والكتابة والاحتكام إلى الصنعة الشعرية.

2- اصطلاحا

نتابع في هذه الجزئية مجموعة من التحديدات المقترحة من أجل تقعيد نظري لمفهوم النقد الأدبي قديمه وحديثه، وهذا عرض موجز لها:

2-1- قديما

تجاذب مفهوم النقد الأدبي القديم مجموعة من النقاد، سنعرض لبعض من تحديداتهم المقترحة وفق النسق الآتي:

عرّف أبو سلام الجمحي النقد بوصفه صناعة على غرار العلوم والصناعات المعروفة في زمانه، تتميز بمفهوم وأدوات تخصها إذ تعينها على معالجة موضوع دراستها، إلا أنه اكتفى من ذلك كله بالتعويل على خبرة ودراية الناقد أثناء تناوله للموضوع الشعري والحكم عليه بالجودة أو الرداءة، في مقابل ثقة الشاعر والجمهور بحكمه النقدي، وذلك في قوله:

«للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات [...]، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مسّ ولا طراوة ولا دنس ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستُّوقها ومُفرَّغها [...]، يعرف ذلك [...] عند المعاينة والاستماع، بلا صفة يُنتهى إليها، ولا علم يُوقف عليه، وإنّ كثرة الممارسة للشيء لتعين على العلم به.»[5]

كما شكّل اعتراض الجاحظ على أبي عمرو الشيباني فيما تعلق باستحسان أو استهجان الشعر بناء على المعاني بالنسبة للثاني، والأسلوب بالنسبة للأول، أساسا في بلورة مفهوم جديد يخص النقد الأدبي، وعلى الرغم من أنه في جوهره يُعنى بصناعة

5)- محمد بن سلام الجمحي، ***طبقات الشعراء***، منشورات محمد علي بيضون: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (د.ط)، 1422هـ- 2001م، ص36- 37.

- بهرجها وزائفها وستُّوقها ومُفرَّغها من الدراهم: التي لا قيمة لها.

الشعر إلا أنه يُعنى بتحديد طبيعة ووظيفة النقد الأدبي، طالما يسدّد طريقة عمل الناقد، على غرار نظم الشاعر، من خلال تبيين كيفيات النظر إلى الشعر وتناوله، فاقترح مفهوما للنقد لتلك الفترة يتأسس بالنظر إلى أسلوبه القائم على معطيات شعرية هي: اللفظ، والوزن، والتصوير، وأصالة الموهبة والذوق الشعريين، وهي معطيات شعرية تُقدِّم الشكل على المعنى؛ فالجاحظ يرى أن حقيقة الشعر تكمن في كيفيات قوله لا معانيه، وهذا لا يعني إهمال المعنى لمجرد الاحتفاء بشكله، إنما تقديم الثاني على الأول باعتبار أنّ الشعر هو فن القول لا المعنى، أو كما عبّر عن ذلك في التنصيص التالي:

«المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني. إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وصحّة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير.»[6]

بينما حدّده قدامة بن جعفر بوصفه علما قائما بذاته يمتلك أدواته الخاصة التي تميزه بنفسه عن غيره من النقود التي عنيت، بحسب منظوراتها العلمية المختلفة، إما بالوزن والقافية، أو بالغريب والنحو، أو بالمعاني وأغراضها، وأهملت النظر في عناصر الشعر الأربعة: اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية، بطريقة متراكبة لا مجزأة بحيث تبيّن أصالة الناقد في كشفه لمواطن الجمال التي ميّزت النص الشعري موضوع الدراسة بقدر كشفها لموهبة الشاعر المبدع الذي اجترح صورا جمالية غير مسبوقة بأسلوب مبتكر ومعان خلاقة، فاقترح تعريفا للنقد يحدد طبيعته وظيفته بأنه:

«علم جيّد الشّعر من رديئه.»[7]

يمكن القول بأن مفهوم النقد الأدبي القديم قد توزعه منظوران، عوّلت عليهما الأطروحات السابقة لتبنّي تحديد يخصّ طبيعته ووظيفته، وهما:

6)- الجاحظ، ***الحيوان***، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط2، 1385هـ- 1965م، 3/ 132.

7)- قدامة بن جعفر، ***نقد الشعر***، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص62.

أ- الحكم النقدي، ويقصد به تعقب آثار الأدباء والشعراء والخطباء للدلالة على أخطائهم والإشادة بمحاسنهم ونشرها قصد التوجيه والتعليم[8].

ب- الوسيلة النقدية، وتتمثل في مفردات الصناعة، والعلم، والعيار، ونظرية النظم، وعمود الشعر؛ وهي كلها تعني: الوسائل والمقاييس التي ينبنى عليها الحكم النقدي[9].

يوهم المنظوران بالاختلاف الشديد بينهما، ذلك أن مصطلح الصناعة، أو العلم، أو العيار، قد ولج ساحة النقد الأدبي القديم متأخرا بأشواط عن ‘‘الحكم’’ الذي سبقه إلى إنتاج نقدي ضخم اتسم بغياب المنهج أو تصور نقدي مخطط له بعناية، مكتفيا بالذوق الأدبي وحده في تمييز جيد النصوص من رديئها باعتبار أنه: «ليس للجودة في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في النفس عند المميز.»[10]

غير أنهما يكملان بعضهما البعض حيث لا بدّ للناقد أن يتسلح بأدوات ومقاييس توفرها الوسيلة النقدية، بحيث تعينه على تدقيق النظر في النصوص المعالجة حتى يخرج بحكم نقدي مؤصّل يبتعد قيد الإمكان من النظرة الذاتية المخلوطة، ويقترب بذلك من النظرة الموضوعية المؤسّسة، ولا يتأتى ذلك إلا بمداومة في النص الشعري بحثا عن مكامن جماليته؛ ذلك أن: «موضوع الصناعة في الجملة فهو الشيء الذي فيه يُنظرُ، وعن أعراضه الذاتية يُبحثُ.»[11]

---

8)- أحمد الشايب، ***أصول النقد الأدبي***، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة- مصر، ط10، 1994م، ص115.

9)- جابر عصفور، ***مفهوم الشعر؛ دراسة في التراث النقدي***، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر، ط5، 1995م، ص23.

10)- ابن رشيق، ***العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده***، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، دمشق- سوريا، ط5، 1401هـ- 1981م، 1/ 119.

- الفرند في السيف: ما يرى فيه من انعكاس الضّوء.

11)- السجلماسي، ***المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع***، تقديم وتحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط- المغرب، ط1، 1401هـ- 1980م، ص218.

- الفرند في السيف: ما يرى فيه من انعكاس الضّوء.

2-2- حديثا

انتشرت مجموعة من المفاهيم الخاصة بالنقد الأدبي الحديث، سنتناول بعضها من خلال التصورات الآتية:

اقترح شوقي ضيف تعريفا للنقد الأدبي الحديث، يجعله مستقلا بنفسه بما يتوفر عليه من أدوات منهجية، وطرائق تحليلية، وطروحات فكرية جمالية، تعينه على كشف جماليات النص الأدبي، وتحليلها من أجل تقدير قيمتها الفنية، كما تميزه عن غيره كتاريخ الأدب الذي يُعنى بتطوره، والبلاغة التي تبحث الأسلوب وخصائصه التعبيرية، لكنه محتاج إلى الأدب؛ لأنه يتّخذه موضوعا له:

«النقد تحليل القطع الأدبية وتقدير ما لها من قيمة فنية.»[12]

بينما حدّده عز الدين إسماعيل بوصفه وسيطا ينتج لنا نصا نقديا إثر تفسيرات ممكنة للنص الأدبي، فتحل النص الأول محل النص الثاني، بما قدمه من كشوفات متميزة وتبريرات مقبولة، ليقوم بين فهم المبدع لواقعه، وفهم القارئ للنص المبدع، وهو معنى يكشف أهمية النقد في واقعنا الأدبي بقدر ما يحيل على خطره، إذ يتبدى المنجز النقدي بمثابة فهم شخصي يلقيه في ذهن القارئ صحيحا كان أم خاطئا، ذلك أنّ النقد عند عزّ الدين إسماعيل هو:

«تفسير للتفسير، أي الصورة الفنية التي خرج فيها الأدب.»[13]

فيما اقترح وليد قصاب مفهوما واسعا للنقد، فجعله لا يقف عند مساءلة النصوص الأدبية، بل يتجاوزها إلى النصوص الأخرى الثقافية منها أو الفلسفية أو السياسية، إلخ؛ ذلك أنه قد تصور النقد فعالية فكرية تنزع بطبيعتها إلى الانفتاح على نصوص أخرى لمزاولة نشاطها الذي يتميز بمداومة النظر في الخطابات بحثا عن جمالياتها الممكنة للكشف عنها، وتحليلها لإعلاء مكانتها، أو العدول عنها إلى غيرها، إذ تُشكل نتائج هذه الفعالية خامة ستسهم، إذا عُني بها، في توسيع فضاء النوع والنظرية والتاريخ العام

12)- شوقي ضيف، ***النقد***، دار المعارف، القاهرة- مصر، ط5، (د.ت)، ص9.

13)- عز الدين إسماعيل، ***الأدب وفنونه؛ دراسة ونقد (الأدب- النقد- الشعر- القصة- المسرحية- المقال- ترجمة الحياة- الخاطرة)***، دار الفكر العربي، القاهرة- مصر، (د.ط)، 1435هـ- 2004م، ص39.

للظاهرة المدروسة سواء كانت أدبية أم فكرية أم نقدية نفسها، طالما أن النقد عند وليد قصاب هو:

«نشاط فكري لا غنى عنه في أوجه الحياة جميعها، إذ هو معيار تسديد وتقويم ومراجعة لأي مسار معرفي.»[14]

توزع النقد الأدبي، حديثا، بين منظورين، هما:

أ- علم؛ باعتبار تقيده بالنظريات الفكرية والأصول العلمية التي توجه منظوره النقدي وتسده[15]، فينتج النص النقدي مغتنيا بطروحاته الفكرية والعلمية مفتقرا إلى أسلوب جميل.

ب- فن؛ لأن النقاد يعالجون أفكارهم معالجة فنية، فهم كالأدباء يُعنون بمعانيهم أثناء تفسيرهم لقيم الآثار الأدبية المدروسة كما يُعنون بأساليبهم أثناء عرضهم لتلك المعاني، بهدف التأثير في قرائهم[16].

مهما يكن القول يمكننا النظر إلى النقد بأنه علم وفن؛ فهو علم بما يتوفر عليه من أدوات منهجية ونظريات علميه تحدد نظرته للأدب وتصوب تحليله؛ وهو فن باعتبار أسلوبه الذي يحلل من خلاله أفكار الأدب، ويعرض معانيه للقراء.

14)- وليد قصاب، ***مناهج النقد الأدبي الحديث؛ رؤية إسلامية***، دار الفكر- آفاق متجددة، دمشق- سوريا، ط2، 1430هـ- 2009م، ص9.

15)- عبد العزيز عتيق، ***في النقد الأدبي***، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط2، 1391هـ- 1972م، ص264.

16)- شوقي ضيف، ***المرجع السابق***، ص9.